تـــلاوة الـقـرآن
آدابها الظاهرة والباطنة (3)

الشيخ محمد مهدي النراقي

هذا هو القسم الثالث من مقاربة الفقيه الكبير الشيخ محمد مهدي النراقي في كتابه "جامع السعادات" لموضوع تلاوة القرآن الكريم. ما سبق تمّ التأكيد فيه على الآداب الباطنيّة التالية: *التفهّم: وهو أن يستوضح التّالي من كلّ آية ما يليق بها. *التّخلّي عن موانع الفهم، وهي: التقليد والتعصّب لمذهب، وصرف الهمّة والفهم إلى تحقيق الحروف وما يتعلّق بها، والإصرار على الذّنوب الظاهرة والباطنة، ومتابعة الشهوات المظلمة للقلب الموجبة للحرمان عن انكشاف الأسرار. *التّخصيص: وهو أن يقدّر أنّه المقصود بكلّ خطاب في القرآن. *التأثّر: وهو أن يتأثّر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كلّ فهمٍ حالٌ من: الخوف، والحزن والوجل، والوجد، والفرح، والإرتياح، والرجاء، والقبض، والإنبساط. وهنا يتابع المولى النّراقي عرض باقي الآداب الباطنة للتلاوة:

.. المقصود الأصلي من القرآن، استجلاب هذه الأحوال إلى القلب والعمل به.

وإلا فالمؤونة بتحريك اللسان بحروفه خفيفة.

وحقّ تلاوة القرآن أن يشترك فيها اللسان والعقل والقلب.

فحظّ اللسان تصحيح الحروف بالتّرتيل، وحظّ العقل إدراك المعاني، وحظّ القلب الاتّعاظ والتأثّر بالحالات المذكورة.

فاللسان واعظ القلب، والعقل مترجم، والقلب متّعظ.

ومن آداب التلاوة الباطنة:

* **الترقّي**: وهو أن يترقّى العبد إلى أن يسمع الكلام من الله تعالى لا من نفسه.

فدرجات القراءة ثلاث:

الأولى: وهي أدناها، أن يقدّر أنه يقرأه على الله تعالى واقفاً بين يديه، وهو ناظرٌ إليه ومستمع منه، فتكون حاله ـ على هذا التقدير ـ التملّق والسؤال والتضرّع والإبتهال.

الثانية: أن يشهد بقلبه كأنّ ربّه يخاطبه باللّطافة، ويناجيه بإحسانه وإنعامه، فمقامه الهيبة والحياء والتّعظيم والإصغاء.

الثالثة: أن يرى في الكلام المتكلّم، وفي الكلمات الصفات، فلا ينظر إلى نفسه وإلى تلاوته، ولا إلى تعلّق الإنعام به من حيث إنّه منعَم عليه، بل يكون مقصور الهمّ على {المتكلّم}، موقوف الفكر عليه، كأنّه مستغرقٌ بمشاهدة المتكلّم من غيره.

وهذه درجة المقرّبين والصدّيقين، وما قبله من درجات أصحاب اليمين، وما خرج من ذلك فهو درجات الغافلين.

وقد أخبر عن الدرجة العليا سيد الشهداء ـ أرواحنا فداه ـ حيث قال عليه السلام: «الذي تجلّى لعباده في كتابه، بل في كلّ شيء، وأراهم نفسه في خطابه، بل في كلّ نور».

كذلك أشار إليها الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام حيث قال: «والله لقد تجلّى الله عزّ وجلّ لخلقه في كلامه! ولكن لا يُبصرون».

ورُوي أنّه لحقتْه حالةٌ في الصلاة حتى خرّ مغشيّاً عليه، فلمّا سُرِّيَ عنه، قيل له في ذلك، فقال عليه السلام: «ما زلت أردّد الآية على قلبي، حتى سمعتُها من المتكلّم بها، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته».

وفي مثل هذه الدرجة تشتدّ البهجة، وتَعْظُمُ الحلاوة واللذّة.

ومن آداب التلاوة الباطنة:

التبرّي: وهو أن يتبرّى من حولِه وقوّته، ولا يلتفت إلى نفسه بعين الرضا والتزكية. فإذا قرأ آيات الوعد ومدح الأخيار، فلا يشهد نفسه ولا يُدخلها في زمرتهم، بل يشهد أهل الصدق واليقين، ويتشوّق إلى أن يُلحقه الله بهم.

وإذا قرأ آيات المقت والوعيد، وذمّ العصاة والمقصّرين شهد نفسه هناك، وقدّر أنه المخاطب خوفاً وإشفاقاً. وإلى هذا أشار مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، حيث قال في وصف المتّقين: «وإذا مرّوا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنّوا أنّ زفير جهنم في آذانهم».

فإذا رأى القارىء نفسه بصورة التقصير في القراءة كانت رؤيته سببَ قربه. فإنّ من شهد البُعد في القرب، لُطِفَ له بالخوف، حتى يسوقه إلى درجة أخرى في القرب وراءها، ومن شهد القرب في البُعد، مكر به بالأمن الذي يفضيه إلى درجة أخرى في البُعد أسفلَ ممّا هو فيه.

ومهما كان مشاهداً نفسه بعين الرضا، صار محجوباً بنفسه. فإذا جاوز حدّ الإلتفات إلى نفسه، ولم يشاهد إلا الله تعالى في قراءته، وكشف له سرّ المَلَكوت بحسب أحواله، فحيث يتلو آيات الرحمة والرجاء، يغلب على حاله الإستبشار، وتنكشف له صورة الجنة، فيشاهدها كأنه يراها عياناً.

وإن غلب عليه الخوف، كوشف بالنار، حتى يرى أنواع عذابها، وذلك لأنّ كلام الله عزّ وجلّ يشتمل على السهل اللطيف، والشديد العسوف، والمرجوّ والمخوف، وذلك بحسب أوصافه، إذ منها الرحمة واللطف. و{يشتمل على} القهر والبطش والانتقام: فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات ينقلب القلب في اختلاف الحالات، وبحسب كلّ حالة منها يستعدّ للمكاشفة بأمر يناسب تلك الحالة، إذ يمتنع أن يكون حال المستمع واحداً والمسموع مختلفاً، إذ فيه كلامُ راضٍ، وكلامُ غضبان، وكلامُ مُنْعِم، وكلامُ منتقم، وكلامُ جبّار متكبّر لا يبالي، وكلام منّان متعطّف لا يُهمل.

موجز في التعريف بالسور

(سورة النساء)

من أهمّ سبل التعرّف إلى القرآن الكريم، تكوين تصوّر واضح عن كلّ سورة من السّور المباركة، وهو بابٌ يحتمل البحث فيه التفصيل، خصوصاً إن أريد له أن يشمل البحث في أهداف كلّ سورة وسبب نزول الآيات.
ما يلي موجز في التعريف بسورة النساء.

* سورة النساء مدنيّة، وعددُ آياتها مائة وستٌّ وسبعون آية.
وقبل الخوض في التعريف بآيات هذه السّورة تجدر الإشارة إلى عدّة نقاط، هي:

أ- موضع نزول هذه السورة: كلّ آيات هذه السورة، باستثناء الآية 58 وفق بعض المفسّرين، نزلت في المدينة المنوّرة، وتقع من حيث ترتيب النّزول بعد سورة المُمتحَنة، لأنّ الترتيب الفعليّ للسّور القرآنيّة - كما نعلم - لا يُطابق ترتيبها في النّزول، بمعنى أنّ كثيراً من السّور التي نزلت في مكّة، تقع في التّرتيب الحاضر في آخر القرآن الكريم، وكثيراً من السّور التي نزلت في المدينة، تقع في أوائله.
وثمّة دلائل تؤكّد أنّ جمع السّور القرآنيّة على الشكل الفعليّ، قد تمّ في زمن النبيّ صلّى الله عليه وآله نفسِه. وعلى هذا الأساس، يكون النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله قد أمر بأن تُرتَّب السّور على النحو الموجود الآن، (بأن يكون أولها الحمد وآخرها النّاس)، لأسباب مختلفة منها: أهميّة المواضيع التي تضمّنتها السّور، والترتيب الطبيعيّ لهذه السّور بدون أن يكون قد تغيّر من هذا التّرتيب، أو زِيد أو نقُص في الحروف والآيات والسّور.

ب- هذه السورة تُعتبر من حيث عدد الكلمات والأحرف أطول السّوَر بعد سورة البقرة، وتحتوي على 176 آية، وتُسمّى بسورة النساء نظراً لتضمّنها أبحاثاً كثيرة، وحديثاً مفصّلاً حول أحكام «المرأة» وحقوقها.

ج- محتويات سورة النساء: هذه السورة - كما قلنا - نزلت في المدينة، بمعنى أنّ النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله عندما كان مُقبلاً على تأسيس حكومة إسلاميّة، وتكوين مجتمع إنسانيّ قويم، نزلت هذه السورة، وهي تحمل جملةً من القوانين التي لها أثرٌ كبير في إصلاح المجتمع، وإيجاد البيئة الإجتماعية الصالحة النقيّة. ومن ناحية أخرى، فإنّ أكثر أفراد هذا المجتمع الجديد كانوا قبل ذلك من الوثنيّين بما فيهم

من لَوثات الجاهليّة وانحرافاتها ورواسبها، لذلك يتعيّن قبل أيّ شيء تطهيرُ عقولهم، وتزكية أرواحهم ونفوسهم من تلك الرّواسب، وإحلال القوانين والبرامج اللازمة لإعادة بناء المجتمع، محلّ تلك العادات والتقاليد الجاهليّة الفاسدة.
وعلى العموم، فإنّ المواضيع المختلفة التي تحدّثت عنها هذه السورة هي عبارة عن:
- الدّعوة إلى الإيمان والعدالة، وقطع العلاقات الودّية بالأعداء الألدّاء، والخصوم المعاندين.
- ذكر بعض قصص الأمم الماضية لأجل التعرّف على عواقب المجتمعات غير الصالحة.
- العناية بالمحتاجين إلى الحماية مثل الأيتام، وبيان التّعاليم اللازمة لصيانة حقوقهم.
- قانون الإرث والتّوارث بنحو طبيعيّ وعادل في قبال الكيفيّة القبيحة التي كان عليها وضع التّوريث في ذلك الزمان، حيث كان يُحرم الضّعفاء بحجج واهية، وأعذار غير وجيهة.
- القوانين المتعلّقة بالزّواج والبرامج التي تصون العفاف العام.
- القوانين العامّة لحفظ الأموال العامّة.
- حفظ وتحسين حالة الوحدة الأساسيّة للمجتمع، أي العائلة.

– الحقوق والواجبات الفرديّة المتقابلة في المجتمع.
– التّعريف بأعداء المجتمع الإسلامي وتحذير المسلمين منهم.
– الحكومة الإسلاميّة ووجوب طاعة قائد هذه الحكومة.
– حثّ المسلمين على مجابهة الأعداء وجهادهم.
– الكشف عن الأعداء والخصوم الذين قد يتوسّلون العملَ السريّ.
– أهميّة الهجرة ووجوبها عند مواجهة مجتمع فاسدٍ غير قابلٍ للتّأثير فيه وتغييره.
– البحث مجدّداً عن الإرث ونظام التّوريث، وضرورة تقسيم الثروات المكدّسة بين الوارثين.

*** فضل تلاوة سورة النساء**

عن النبي الأكرم ﷺ، كما في رواية أنّه قال: «مَن قرأها [أي سورة النساء] فكأنّما تصدّق على كلّ مؤمنٍ ورث ميراثاً، وأُعطي من الأجر كمن اشترى محرّراً».

ومن البيِّن أنّ المقصود في هذه الرواية وأمثالها ليس هو القراءة المجرّدة، بل تلك القراءة التي تكون مقدّمة للفهم والإدراك الذي هو بدوره مقدّمة لتطبيق تعاليم هذه السورة في الحياة الفرديّة والاجتماعية. ومن المسلَّم أنّ المسلمين لو استلهموا من مفاهيم هذه السورة في حياتهم، لنالوا كلّ هذا الأجر مضافاً إلى النتائج الدنيوية.

الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج 3، ص 74 – 78.

***

*** سورة النساء في التفاسير**

غرض السورة ـ كما تُشير إليه الأية الأولى ـ بيان أحكام الزّواج، كعدد الزّوجات، ومحرمات النّكاح، وغير ذلك، وأحكام المواريث، وفيها أمور أخرى من أحكام الصلاة، والجهاد، والشّهادات، والتجارة، وغيرها، وتعرض لحال أهل الكتاب.

ومضامين آياتها تشهد أنّها مدنيّة نزلت بعد الهجرة، وظاهرها أنّها نزلت نجوماً، لا دفعة واحدة، وإن كانت أغلب آياتها غير فاقدة للإرتباط في ما بينها. وأمّا هذه الآية [الأولى] في نفسها فهي ـ وعدّة من الآيات التالية لها المتعرّضة لحال اليتامى والنساء ـ كالتوطئة لما سيبيَّن من أمر المواريث والمحارم.

وأمّا عدد الزوجات الواقعة في الآية الثالثة، فإنّه وإن كان من مهمّات السورة، إلا أنّه ذُكر استطراداً بالاستفادة من الكلام المتقدّم الذي وقع في الآية.

تفسير الميزان، ج 4، ص 134.

***

سورة النساء: مائة وسبعون وست آيات، مدنيّة.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ النساء:1.

إعلم أنّ هذه السورة مشتملة على أنواع كثيرة من التكاليف، وذلك لأنّه تعالى أمر الناس في أوّل هذه السورة بالتعطّف على الأولاد والنساء والأيتام، والرّأفة بهم، وإيصال حقوقهم إليهم، وحفظ أموالهم عليهم. وبهذا المعنى ختمت السورة، وهو قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ..﴾ النساء:176، وذكر في أثناء هذه السورة أنواعاً أُخر من التّكاليف، وهي الأمر بالطهارة والصلاة، وقتال المشركين، ولمّا كانت هذه التّكاليف شاقّة على النّفوس لثقلها على الطّباع، لا جَرم افتتح السورة بالعلّة التي لأجلها يجب حملُ هذه التّكاليف الشاقّة، وهي تقوى الرّب الذي خلقنا والإله الذي أوجدنا، فلهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ..﴾ النساء:1.

تفسير الرازي، ج 9، ص 157.

***

سورة النّساء: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ النساء:1، وهي مائة وست وسبعون آية.

في كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «من قرأ سورة النساء في كلّ جمعة، أَمِنَ من ضغطة القبر».

وفي مصباح الكفعمي: عن النبيّ ﷺ: «من قرأها فكأنّما تصدّق على كلّ مَن ورث ميراثاً، وأُعطي من الأجر كمن اشترى محرّراً، وبرِأ من الشِّرك، وكان في مشيئة الله من الذين تجاوز عنهم».

تفسير كنز الدقائق، ج 2، ص 335 – 337.

تصحيح العلاقة بالقرآن الكريم

إعداد شعائر

«إنّ القرآن ظاهرُه أنيق، وباطنُه عميق، لا تفنى عجائبُه، ولا تنقضي غرائبُه، ولا تُكشفُ الظّلماتُ إلاّ به».

الإمام عليّ عليه السلام

حديث القرآن الكريم ذو شجون، متعدّد الأبعاد، فهو نور الله في الأرض، والهدى والحقّ والفرقان، ورسالة الله التي جسّدها أعظم الأنبياء، والثّقل الأكبر الذي اقترنت به عَظَمة أهل البيت، فكانوا كما بلّغ رسول الله ﷺ: القرآنَ النّاطق والثّقل الأصغر.

هذا القرآن الإلهيّ المحمديّ، هو الدّين، والصّراط والسّبيل، والمنهاج والشّريعة.

على القرآن الكريم يجب أن تُبنى الحياة الدنيا، وهو محور بناء الآخرة.

نعيمُ الجنّة ترغيبُه، وشقاءُ النّار ترهيبُه.

عِلّيون ذُراه التي إليها نَدَب.. وأسفلَ سافلين الهاوية التي منها حذّر.

في آياته تتجلّى صفات الله تعالى وأسماؤه الحُسنى، ولذلك كانت مكارم الأخلاق المحمديّة، تجسيدَه والتجلّي.

من أراد أن يعرف الله تعالى، وأقربَ الخلق إليه والأمثلَ بعدهم فالأمثل، فالقرآن هو المورد والمصدر.

* وهمُ العلاقة

ليس ضعف العلاقة بالقرآن الكريم منحصراً بالإعراض عن التّفاعل معه، بل هو يشمل بالتّأكيد التعاملَ الخاطىء معه، لأنّ ذلك يؤدّي إلى هجر حقيقة القرآن، والإكتفاء بوهم العلاقة به، وهو أشدّ أوجه ضعف العلاقة بالقرآن الكريم خطورة، فهو كالجهل المركّب.

لقد استعرض المفسّر الطليعيّ العلاّمة السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ بعضَ أوجه التّعامل الخاطىء مع كتاب الله تعالى، التي يُظنُّ في كلّ مورد منها أنّه مظهر العلاقة بكتاب الله سبحانه، إلا أنّه في الحقيقة مظهر وهم العلاقة، ونقتطف من كلامه ما يلي:

*المحدّثون:

« فأمّا المحدِّثون، فاقتصروا على التّفسير بالرّواية عن السّلف من الصحابة والتّابعين، فساروا وجدّوا في السّير حيثما يسير بهم المأثور، ووقفوا في ما لم يؤثر فيه شيء، ولم يظهر المعنى ظهوراً لا يحتاج إلى البحث، أخذاً بقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ آل عمران: 7، وقد أخطأوا في ذلك، فإنّ الله سبحانه لم يُبطل حجّة العقل في كتابه، وكيف يعقُل ذلك وحُجيَّته إنّما تثبتُ به! ولم يجعل حُجيَّة في أقوال الصحابة والتّابعين وأنظارهم على اختلافها الفاحش، ولم يدع إلى السفسطة بتسليم المتناقضات والمتنافيات من الأقوال، ولم يندب إلا إلى التدبّر في آياته، فرفع به أيّ اختلاف يتراءى منها، وجعله هدىً ونوراً وتبياناً لكلّ شيء، فما بالُ النّورِ يستنير بنور غيره؟! وما شأن الهدى يُهتدى بهداية سواه! وكيف يتبيّن ما هو تبيان كلّ شيءٍ بشيءٍ دون نفسه؟».

*المتكلّمون:

«وأمّا المتكلّمون، فقد دعتهم الأقوالُ المذهبيّة على اختلافها أن يسيروا في التفسير على ما يوافق مذاهبهم بأخذ ما وافق، وتأويل ما خالف، على حسب ما يُجوّزه قولُ المذهب.

واختيارُ المذاهبِ الخاصّة، واتّخاذُ المسالك والآراء المخصوصة، وإنْ كان معلولاً لاختلاف الأنظار العلميّة، أو لشيءٍ آخر كالتّقاليد والعصبيّات القوميّة، وليس هَهنا محلّ الإشتغال بذلك، إلا أنّ هذا الطريق من البحث أحرى به أن يُسمّى تطبيقاً لا تفسيراً، ففرقٌ بين أن يقول الباحث عن معنى آية من الآيات: ماذا يقول القرآن؟ أو يقول: ماذا يجب أن نحمل عليه الآية؟ فإنّ القول الأول يُوجب أن يُنسى كلّ أمرٍ نظريٍّ عند البحث، وأن يُتّكأ على ما ليس بنظريّ، والثاني يُوجب وضع النّظريات في المسألة وتسليمها وبناء البحث عليها، ومن المعلوم أنّ هذا النّحو من البحث في الكلام ليس بحثاً عن معناه في نفسه».

*الفلاسفة:

«وأمّا الفلاسفة، فقد عرض لهم ما عرض للمتكلّمين من المفسّرين، من الوقوعِ في ورطة التّطبيق، وتأويل الآيات المخالفة بظاهرها للمُسلّمات في فنون الفلسفة بالمعنى الأعمّ، أعني: الرّياضيات والطبيعيّات والإلهيّات والحكمة العمليّة، وخاصة المشّائين، وقد تأوّلوا الآيات الواردة في حقائق ما وراء الطبيعة، وآيات الخِلقة، وحدوثِ السّماوات والأرض، وآيات

البرزخ، وآيات المعاد، حتى أنّهم ارتكبوا التّأويل في الآيات التي لا تُلائم الفرضيّات والأصول الموضوعة، التى نجدها في العلم الطبيعيّ: من نظام الأفلاك الكليّة والجزئيّة، وترتيب العناصر والأحكام الفلكيّة والعنصريّة، إلى غير ذلك، مع أنّهم نصّوا على أنّ هذه الأنظار مُبتنيةٌ على أصول موضوعة، لا بينة ولا مبينة».

***المتصوّفة:**

«وأما المتصوّفة، فإنّهم لاشتغالهم بالسّير في باطن الخِلقة، واعتنائهم بشأن الآيات الأنفسيّة دون عالم الظاهر وآياته الآفاقيّة، اقتصروا في بحثهم على التّأويل، ورفضوا التّنزيل، فاستلزم ذلك اجتراءُ النّاس على التّأويل، وتلفيقُ جُمل شعريّة والاستدلالُ من كلّ شيءٍ على كلّ شيء، حتى آل الأمرُ إلى تفسير الآيات بحساب الجُمَّل، وردِّ الكلمات إلى الزبر والبيّنات، والحروف النورانيّة والظلمانيّة إلى غير ذلك.

ومن الواضح أنّ القرآن لم ينزل هدىً للمتصوّفة خاصّة، ولا أنّ المخاطَبين به هم أصحاب علم الأعداد والأوفاق والحروف، ولا أنّ معارفه مبنيّة على أساس حساب الجُمَّل الذي وضعه أهل التّنجيم بعد نقل النّجوم من اليونانيّة وغيرها إلى العربيّة.

نعم، قد وردت روايات عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وأئمّة أهل البيت عليهم السلام، كقولهم: إنّ للقرآن ظَهراً وبطناً، ولبطنه بطناً إلى سبعة أبطن، أو إلى سبعين بطناً، الحديث.

لكنهم عليهم السلام اعتبروا الظّهر كما اعتبروا البطن، واعتنوا بأمر التّنزيل كما اعتنوا بشأن التّأويل، وسنُبيّن في أوائل سورة آل عمران إن شاء الله، أنّ التّأويل الذي يُراد به المعنى المقصود الذي يخالف ظاهر الكلام من اللغات المستحدثة في لسان المسلمين بعد نزول القرآن، وانتشار الإسلام، وأنّ الذي يريده القرآن من لفظ التّأويل في ما ورد فيه من الآيات، ليس من قبيل المعنى والمفهوم».

*** المادّيّون:**

«وقد نشأ في هذه الأعصار مسلكٌ جديدٌ في التّفسير، وذلك أنّ قوماً من منتحلي الإسلام في إثر توغّلهم في العلوم الطبيعيّة وما يشابهها، المبتنية على الحسّ والتجرّب، والإجتماعيّة المبتنية على تجربة الإحصاء، مالوا إلى مذهب الحِسّيّين من فلاسفة أوروبا السّابقين، أو إلى مذهب أصالة العمل (لا قيمةَ للإدراكات إلا ترتّب العمل عليها بمقدار تعينه الحاجة الحيويّة بحكم الجبر).

فذكروا: أنّ المعارف الدينيّة لا يُمكن أن تُخالف الطريق الذي تصدّقه العلوم، وهو أنّ: (لا أصالة في الوجود إلا للمادّة وخواصّها المحسوسة) **فما كان الدّين يُخبر عن وجوده ممّا يكذب العلوم ظاهرَه، كالعرش والكرسيّ، واللّوح، والقلم، يجب أن يُؤوّل تأويلاً، وما يخبر عن وجوده ممّا لا تتعرّض العلوم لذلك، كحقائق المعاد يجب أن يُوجّه بالقوانين المادّيّة، وما يتّكيء عليه التّشريع من الوحي، والمَلَك، والشّيطان، والنّبوّة، والرّسالة، والإمامة، وغير ذلك، إنّما هي أمور روحيّة، والرّوح ماديّة ونوعٌ من الخواصّ الماديّة، والتّشريع نبوغٌ خاصٌّ اجتماعيّ يبني قوانينه على الأفكار الصالحة، لغاية إيجاد الإجتماع الصّالح الرّاقي.**

[و] ذكروا: أنّ الرّوايات، لوجود الخليط فيها لا تصلح للإعتماد عليها، إلا ما وافق الكتاب، وأمّا الكتاب فلا يجوز أن يُبنى في تفسيره على الآراء والمذاهب السّابقة المبتنية على الإستدلال من طريق العقل الذي أبطلَه العلم بالبناء على الحسّ والتجربة، بل الواجب أن يستقل بما يعطيه القرآن من التّفسير إلا ما بيّنه العلم. هذه جمل ما ذكروه أو يستلزمه ما ذكروه، من اتّباع طريق الحسّ والتجربة، فساقهم ذلك إلى هذا الطريق من التفسير.

ولا كلام لنا هَهنا في أصولهم العلميّة والفلسفيّة التي اتّخذوها أصولاً وبنوا عليها ما بنوا. وإنّما الكلام في أنّ ما أوردوه على مسالك السّلف من المفسّرين (أنّ ذلك تطبيق وليس بتفسير) واردٌ بعينه على طريقتهم في التفسير، وإن صرّحوا أنّه حقّ التفسير الذي يُفسّر به القرآن بالقرآن. ولو كانوا لم يحملوا على القرآن في تحصيل معاني آياته شيئاً، فما بالهم يأخذون الأنظار العلميّة مسلّمة لا يجوز التعدّي عنها؟ فهم لم يزيدوا على ما أفسده السلف إصلاحاً».

*** وقفة مع الجميع:**

«وأنت بالتّأمّل في جميع هذه المسالك المنقولة في التفسير تجد: أنّ الجميع مشتركة في نقص - وبئس النقص - وهو تحميل ما أنتجته الأبحاث العلميّة أو الفلسفيّة من خارج، على مداليل الآيات، فتبدّل به التّفسير تطبيقاً وسُمّي به التطبيق تفسيراً، وصارت بذلك حقائق من القرآن مجازات، وتنزيلُ عدّة من الآيات تأويلات. ولازمُ ذلك - كما أومأنا إليه في أوائل الكلام - أن يكون القرآن الذي يُعرّف نفسه بأنّه هدىً للعالمين، ونور مبين، وتبيان لكلّ شيء، مهديّاً إليه بغيره، ومستنيراً بغيره، ومبيّناً بغيره، فما هذا الغير؟! وما شأنه؟! وبماذا يهدي إليه؟! وما هو المرجع والملجأ إذا اختُلف فيه؟!».

ويخلص العلامة الطباطبائي قدّس سرّه إلى النتيجة التالية التي يُوردها في سياق آخر، فيقول:

«فالحقّ أنّ الطريق إلى فهم القرآن الكريم غير مسدود، وأنّ البيان الإلهيّ والذّكر الحكيم بنفسه هو الطريق الهادي إلى نفسه، أي أنّه لا يحتاج في تبيين مقاصده إلى طريق، فكيف يُتصوّر أن يكون الكتاب الذي عرّفه الله تعالى بأنّه هدى، وأنّه نور، وأنّه تبيانٌ لكلّ شيء، مفتقراً إلى هادٍ غيره، ومستنيراً بنور غيره، ومبيَّناً بأمر غيره».